الإمام أبو بكر بن يونس الصقلي ومنهجه في التأليف

عبد الرحمان بن ابراهيم بوشطارة (ت)
باحث بسلك الدكتوراه بكلية الشريعة ايت ملول جامعة ابن زهر بأكادير
مختبر الاجتهاد المعاصر: أسس وقضايا
المغرب

الملخص:

يعد الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي (ت 451هـ)، الملقب بـ "الإمام الأكبر"، من أبرز أعمدة المذهب المالكي وأحد الأئمة الأربعة الذين اعتمد الشيخ خليل على ترجيحاتهم في مختصره، ارتبطت شهرته العلمية بكتابه الفذ "الجامع لمسائل المدونة والمختلطة" الذي لقب بـ"مصحف المذهب" لصحة مسائله ووثوقية صاحبه، وقد سلك ابن يونس في كتابه "الجامع" منهجا واضح المعالم الفقه وضع فيه شرحا وافيا للمدونة، حيث قام بتبسيط ألفاظها، وحذف تكرارها، وإسناد الآثار المروية فيها، ولم يقتصر على المدونة فحسب، بل استوعب فيه أمهات المذهب المالكي الأخرى مثل "النوادر والزيادات" و"الموازية" و"الواضحة"، مما جعل كتابه موسوعة تغني عن غيرها، وتميز منهجه بالدقة في توجيه المسائل وتعليلها.

الكلمات المفتاحية: أبو بكر بن يونس، كتاب الجامع، المنهج.

تقديم:

يقدم هذا البحث دراسة أصيلة لإحدى القامات الفقهية البارزة في الفقه المالكي، الإمام أبي بكر بن يونس الصقلي، من خلال تسليط الضوء على شخصيته العلمية ومكانته الفقهية، والتعريف بكتابه الفذ "الجامع لمسائل المدونة والمختلطة" الذي يعد سفرا عظيما ومصدا رئيسا في تفريع المذهب المالكي وتأصيله.

وتتحدد المادة العلمية للمقال في ثلاثة مباحث رئيسة؛ تناولت التعريف بحياة المؤلف وسياقه العلمي، ثم استعراض خصائص كتاب "الجامع" وقيمته المنهجية، وصولا إلى استجلاء المعالم الدقيقة لمنهج ابن يونس، كطريقته في ترجيح الآراء، واستيعاب الروايات، وتحرير نصوص المدونة.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الجهد النظري والتطبيقي الذي بذله المصنف، وتبيان أثره المتعدي في من جاء بعده من فقهاء المغرب والأندلس، وياتي تصميم مادة هذا البحث على الشكل التالي:

المبحث الأول: التعريف بالإمام أبي بكر بن يونس الصقلي.

المبحث الثاني: التعريف بكتاب الجامع لمسائل المدونة والمختلطة.

المبحث الثالث: خصائص ومميزات منهج ابن يونس في كتابه الجامع.

المبحث الأول: التعريف بالإمام أبي بكر بن يونس الصقلي.

المطلب الأول: حياة أبي بكر بن يونس الصقلي الشخصية

للحديث عن حياة ابن يونس الشخصية؛ حاولت في هذا المطلب إبراز معالمها من خلال ذكر اسمه ونسبه؛ ومولده ونشأته، وتاريخ وفاته، وذلك في ثلاثة فروع وهي كما يلي:

الفرع الأول: اسمه ونسبه

اسمه: محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي، كنيته: أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، وقد اشتهر بابن يونس نسبة إلى جده، أصله بالقيروان، ويعود نسبه إلى القبيلة العربية تميم، وينسب إلى صقلية لأن أباه سافر إلى جزيرة صقلية واستقر بها،[1] ويلقب: الإمام الأكبر.

ترجم له القاضي عياض في المدارك، وابن فرحون في الديباج، وغيرهم.. يقول القاضي عياض: "أبو بكر الصقلي، ويقال أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي، كان فقيهاً فرضياً حاسباً"... وأضاف: "وكان ملازما للجهاد موصوفا بالنجدة"[2]. وقال عنه ابن فرحون: "محمد أبو بكر بن عبد الله بن يونس تميمي صقلي، كان فقيها إماما عالما فرضيا، وكان ملازما للجهاد موصوفا بالنجدة"[3]. وأورد صاحب الجمهرة كلاما مثل هذا قال فيه: "يقال له (يعني ابن يونس الصقلي) أبو عبد الله التميمي الفقيه الفرضي الحاسب المجاهد الصقلي ثم القيرواني".[4]

---

[1]– مقدمة تحقيق كتاب الجامع لمسائل المدونة، ابن يونس الصقلي، إعداد حمدون عبد الله الشمري، الناشر: دار الفكر للطباعة بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1434هـ. الاقتباس مأخوذ من مقدمة الشمراني ج 8/1.

[2]– ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، الناشر: مطبعة فضالة– المحمدية المغرب، الطبعة الثانية:1403هـ. ج114/8.

[3]– الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار التراث القاهرة.ج2 / 240 رقم 67.

[4]– جمهرة تراجم أعلام فقهاء المالكية، قاسم سعد، الطبعة الأولى: 1423هـ. الناشر: دار البحوث للدراسات، ص1132 رقم 1125.

وقال الحجوي في الفكر السامي: "أبو بكر محمد بن يونس، التميمي نسبا، الصقلي دارا، كان فقيها إماما عالما فرضيا، ملازما للجهاد، موصوفا بالنجدة، مشهورا في المذهب المالكي، وهو أحد الأربعة الذين اعتمد الشيخ خليل ترجيحاتهم في مختصره"[5].

الفرع الثاني: مولده ونشأته

ولد ابن يونس بمدينة بلرم[6]عاصمة جزيرة صقلية، وترعرع ونشأ بها، وتلقى العلم عن مشايخها وعلمائها، ثم انتقل إلى القيروان واستقر بها إلى سنة 449 هـ، وبعدها انتقل إلى المهدية واستقر بها إلى أن توفي رحمه الله، قال حسن حسني عبد الوهاب في سياق ترجمته لأبي بكر يونس: "ولد محمد بمدينة بلرم (عاصمة صقلية) وقرأ على قاضيها أبي الحسن الحصائري، وعتيق بن عبد الجبار السمنطاري الفرضي، ثم انتقل إلى سكنى إفريقية فاستوطن القيروان آخر القرن الرابع الهجري، فأخذ عن شيوخها، كأبي عمران الفاسي فبرع في العلوم واشتهر بمعرفة الفرائض والحساب، والتجأ بعد زحف بني هلال على إفريقية إلى المهدية وأقرأ بها الفقه والفرائض حتى توفي رحمه الله"[7].

الفرع الثالث: وفاته

لم يختلف غالبية المترجمين لهذا العالم الفذ في سنة وفاته، ولم أجد فيما اطلعت عليه من كتب التراجم والأعلام إلا ما يدل على أنه توفي سنة واحد وخمسين وأربعمائة هجرية، خلافا لما أورده المؤرخ الجزائري توفيق المدني الذي أرخ لوفاة ابن يونس بسنة (447هـ) إلا أنه وقع اختلاف يسير في شهر وفاته ومكانها، وقد نقل القاضي عياض في المدارك تاريخ وفاة محمد بن يونس فقال: "توفي في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وقيل في العشر الأواخر من ربيع الثاني من نفس السنة"[8].

وأورد قاسم سعد في كتابه الجمهرة، الاختلاف الواقع في تاريخ وفاته حين قال: "توفي بالمهدية في العشرين من ربيع الأول، وقيل في أول العشر الأواخر من ربيع الثاني سنة احدى وخمسين وأربع مائة"[9].

وأورد الحجوي في الفكر السامي أن ابن يونس: "توفي سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وقبره معلوم في منستر[10] بأفريقية زرته، وعليه بناء فخم، وهو الذي يعني ابن عرفة بالصقلي[11].

إلا أن المؤرخ توفيق المدني في كتابه المسلمون بجزيرة صقلية، أورد خلاف ما ذكره المترجمون لابن يونس فذكر: "أن الإمام ابن يونس توفي بمدينة مازر في أوج عزه وسؤدده العلمي، سنة 447هـ".[12]

المطلب الثاني: حياة أبي بكر بن يونس الصقلي العلمية

إذا كان للبيئة الجغرافية أثر كبير في تكوين حياة أبي بكر بن يونس الشخصية، فإن البيئة العلمية أيضا لها أثر كبير في تكوين شخصيته الفقهية والفكرية، ولبيان هذا الأمر سأحاول الحديث في هذا المطلب عن شيوخه وتلامذته، ومؤلفاته وثناء العلماء عليه، وذلك في ثلاثة فروع، وهي كما يلي:

---

[5]- الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، الحجوي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت، ج245/2 رقم 568.

[6]- **بلرم** بفتح أوله وسكون الراء، وميم، معناه بكلام الروم: المدينة، وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطئ البحر، ينظر كتاب: معجم البلدان باب الباء واللام، ج483/1.

[7]- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، حسني عبد الوهاب، الناشر: دار الغرب الإسلامي.، ج676/1 رقم 186.

[8]- الديباج، ج241/2.

[9]-جمهرة تراجم أعلام فقهاء المالكية، ص1133.

[10]- المنستير: مدينة تونسية بين المهدية وسوسة، كان يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم، ينظر كتاب: معجم البلدان ج209/5.

[11]- الفكر السامي ج 245/2 رقم 568.

[12]- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، أحمد توفيق المدني، الناشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية 1985م.، ص204.

أولا: شيوخه وتلامذته

1. **شيوخه**

عاش ابن يونس أول عمره في جزيرة صقلية، وهي جزيرة حافلة بالعلم وأهله، فتأثر رحمه الله بذلك الجو العلمي المهيب، فكان حافزا له على طلب العلم وملازمة العلماء، فطلب العلم على يد مجموعة من مشايخ صقلية، وقد أشارت بعض المصادر إلى أنه: "أخذ عن القاضي أبي الحسن الحصائري، وعتيق ابن الفرضي، وأبي بكر بن أبي العباس وغيرهم"[13]، قال ابن فرحون بعد عده لثلة من المشايخ والعلماء الذين تلقى عنهم أبو بكر بن يونس العلوم الشرعية، قال: "وهم من علماء صقلية وغيرهم"، مضيفا أنه أخذ أيضا عن شيوخ القيروان بعد انتقاله إليها، فقال: "و(أخذ)عن شيوخ القيروان، وأكثر من النقل عن بعضهم، منهم أبو عمران الفاسي، وحدث عن أبي الحسن القابسي".[14]

ومن العلوم التي أخذها عن شيوخه علوم الفقه (المدونة والعتبية والموازية) وعلوم الحديث، حيث اهتمت حلقات الفقه بصقلية بحديث الموطأ، وكتاب الملخص لأبي الحسن القابسي، ودرس كتاب التهذيب للبرادعي:

ومن أشهر شيوخه بصقلية:

أ. القاضي أبو الحسن الحصائري: العالم الفقيه الورع، صاحب دين متين، المعروف بابن الحصائري، سمع من أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن بن بكرون وغيرهم، درس بصقلية الحديث والفقه، وعلى يديه تخرج الكثير[15].

ب. عتيق بن الفرضي: عتيق بن عبد الجبار الربعي الفرضي؛ أبو بكر الصقلي، فقيه عالم فاضل أديب، تفرغ لتدريس المدونة بصقلية، وكان إماما في علم الفرائض، وعنه أخذ أهل صقلية وغيرهم، توفي سنة 304هـ بالقيروان[16].

ت. أبو بكر بن العباس الصقلي: فقيه صقلية وأحد علمائها الكبار ومدرسيها، أخذ عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، قال عنه القاضي عياض: فقيه صقلية، الفاضل، أدب في القرآن والفرائض، وتفقه عليه في المدونة وكان إماماً في علم الفرائض، وعنه أخذها أهل صقلية وغيرهم، حدث عن القابسي، أخذ عنه ابن يونس، والسمنطاري.[17]

ومن أشهر شيوخه بالقيروان:

ث. أبو عمران الفاسي: موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي، نسبة إلى غفجوم فخذ من قبيلة زناتة، كان بيته بفاس معروفا مشهورا يعرفون ببني حاج، استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم، تفقه بأبي الحسن القابسي، ورحل إلى قرطبة فتفقه بها عند الأصيلي، ورحل إلى المشرق ودرس الأصول على يد القاضي أبي بكر الباقلاني، وكان من أحفظ الناس وأعلمهم، وله تآليف مفيدة منها: التعليق على المدونة، والأمالي في الحديث، والنظائر في الفقه، توفي سنة 430هـ، وهو ابن 65 سنة.[18]

---

[13]- ترتيب المدارك، ج114/8.

[14] - الديباج، ج241/2، بتصرف يسير.

[15]- ترتيب المدارك، 269/7. وينظر: مقدمة كتاب الجامع لمسائل المدونة، إعداد حمدون الشمري الناشر دار الفكر لبنان الطبعة الأولى:1434هـ ج 1/ 10، وكتاب: شجرة النور الزكية 97/1 وينظر بحث: الترجيحات الفقهية للإمام ابن يونس الصقلي من خلال كتابه الجامع ص40.

[16]- ترتيب المدارك، 270/7، وينظر أيضا كتاب: شجرة النور الزكية، 97/1.

[17]- المدارك، 270/7، وينظر كتاب: الديباج 240/2، وكتاب: شجرة النور الزكية 98/1.

[18]- المدارك، 243/7، وينظر كتاب: النبوغ الغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، الناشر: دار الثقافة الطبعة الثانية، ج 52،53/1.

5.أبو الحسن القابسي: علي بن محمد بن خلف المعافري، أبو الحسن المعروف بابن القابسي، كان واسع الرواية عالما بالحديث وعلله ورجاله، فقيها أصوليا متكلما، وكان أعمى لا يرى شيئا، وهو مع ذلك من أصح الناس كتبا، وأجودهم ضبطا وتقييدا، يضبط كتبه بين يديه ثقات من أصحابه، توفي بالقيروان سنة 403هـ، ودفن بباب تونس وقد بلغ الثمانين، أخذ عنه ابن يونس الصقلي الحديث[19].

2. **تلامذته**

تتلمذ على ابن يونس ثلة من العلماء الأفذاذ منهم على سبيل المثال لا الحصر :

1.أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج بن فرج المازري، صاحب كتاب الاستيلاء في علوم القرآن، (ت 516هـ)[20] ".

2.أبو حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الحذاء القيسي الصقلي. (ت 526هـ).[21]

3.أبو البهاء عبد الكريم بن محمد بن علي بن عبد الكريم. (ت517هـ) بمصر.[22]

ثانيا: مؤلفاته

ترك ابن يونس إرثا علميا في الفقه والفرائض وأحكام القضاء، يتجلى ذلك من خلال المؤلفات العديدة التي أعقبها والتي تشهد على غزارة علم هذا الفقيه ورجاحة فكره، ومن هذه الكتب:

1. **الجامع لمسائل المدونة والمختلطة**

قال في كتاب العمر: "وهو (يعني: الجامع)كالشرح لها في عدة أجزاء، وقد أضاف إليه من أمهات كتب المالكية من غير المدونة"[23].

وقال القاضي عياض: "ألف(يقصد ابن يونس) كتابا في الفرائض، وشرحا كبيرا للمدونة عليه اعتماد الطالبين بالمغرب للمذاكرة"[24].

وقال في الجمهرة "له شرح كبير للمدونة، يعرف بالجامع لمسائل المدونة، وله أيضا :كتاب الإعلام بالمحاضر والأحكام، وما يتصل بذلك مما ينزل عند القضاة والحكام"[25].

قال الحجوي الثعالبي: "ألف كتابا جامعا لمسائل المدونة والنوادر، وعليه اعتمد من بعده، وكان يسمى مصحف المذهب؛ لصحة مسائله ووثوق صاحبه"[26].

وفي نفس السياق ذكر ابن مخلوف أن ابن يونس: "ألّف كتاباً في الفرائض، وكتاباً حافلاً للمدونة، أضاف إليها غيرها من الأمهات، عليه اعتماد طلبة العلم"[27].

---

[19]- الديباج، ج102/2.

[20]- ينظر كتاب: المدارك، ج340/2. وكتاب الوافي بالوفيات، ج227/4

[21]- ينظر كتاب معجم السفر، صدر الدين أبو طاهر السلفي، تحقيق: عبد الله البارودي، الناشر: المكتبة التجارية، مكة المكرمة ص190 وينظر: بحث الترجيحات الفقهية لابن يونس ص 43.

[22]- المرجع نفسه، ص160.

[23]- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، حسني عبد الوهاب الناشر: دار الغرب الإسلامي، ج676/1.

[24]- ترتيب المدارك، ج114/8.

[25]- جمهرة تراجم أعلام فقهاء المالكية، ج1132/3.

[26]- الفكر السامي، ج245/2.

[27]- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، اعتنى به عبد المجيد خيالي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروتج164/1 رقم 330.

وأورد ابن فرحون في الديباج كلاما مثل هذا، وأضاف قائلا: "وأول من أدخله سبتة الشيخ أبو عبد الله محمد بن خطاب، فانتسخه منه القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، وكان يعرف به في مجلسه حتى كثر عند الناس وبيع".[28]

وهذا الكتاب طبع بتحقيق أبو الفضل الدمياطي، كما طبع بتحقيق مجموعة من الطلبة الباحثين في سلك الدكتوراه، وطبع أيضا باسم: "الجامع لمسائل المدونة المسمى مصحف المذهب المالكي" بإشراف الدكتور أيمن عبد العظيم الأصبح.

كمايوجد قسم كبير منه في أجزاء متفرقة في مكتبة القرويين بفاس[29]، وجزء منه بالمكتبة العاشورية بتونس[30]، يشتمل على كتاب الجامع منه، وأبواب وهي من أهم ما كتب في علم الفرائض.[31]

2. **كتاب الفرائض.**

هذا الكتاب حقق بكلية الشريعة جامعة ابن زهر تحت اسم "المختصر الجامع لأصول الفرائض وتفريعاتها واختلاف وجوهها وتوجيه أقوال المختلفين، للأمام أبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي (ت:451هـ)، وكتاب الفرائض هذا حقق المجلد الأول والثاني منه في بحث الدراسات المعمقة(ماستر) سنة 2012م، تحت رقم: (196ث) أستاذنا الدكتور أحمد زندول، تحت إشراف أستاذنا الدكتور عبد المنعم حميتي حفظه الله وبارك في عمره.

3. **الإعلام بالمحاضر والأحكام وما يتصل بذلك مما ينزل عند القضاة والحكام.**

وقد نسب له المؤرخ التونسي حسن حسني كتابين آخرين، الأول يسمى: المقدمات في الفقه، والثاني يسمى: الإعلام بالمحاضر والأحكام وما يتصل بذلك مما ينزل عند القضاة والحكام، منه نسخة بالقرويين تاريخ نسخها سنة 528هـ، وقد اختصره أبو محمد علي بن دبوس الزناتي بالقرويين أيضا.[32]

4. **المقدمات في الفقه بالقرويين.**[33]

5. **مختصر المدونة:**

قال في المعيار: "وذلك ظاهر من اختصار ابن يونس للمدونة"[34]. (ولم أقف على مراد الإمام الونشريسي بالمختصر، هل هو كتاب مستقل أم يقصد بذلك كتاب الجامع).

6. وقيل له: كتاب الجبر والمقابلة، لكنني لم أقف عليه.

قال عبد الله الشمري في مقدمة تحقيق كتاب الجامع معلقا على صحة نسبة هذه الكتب لابن يونس: "وعند التحقق والفحص، يظهر أن ابن يونس لم يؤلف إلا كتاب الجامع وكتاب الفرائض"[35].

28- الديباج، ج241/2.

29- فاس خزانة القرويين، أجزاء كثيرة ومتعددة أرقامها : 1127،833،820،383،343،341.

30- تونس المكتبة العاشورية: (ف.أ)221.

31- ينظر كتاب: العمر، ج676/1 رقم 186.

32- العمر، ج676/1 رقم 186ص 677.

33- المرجع نفسه.

34- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، تحقيق: مجموعة من الباحثين بإشراف محمد حجي، الناشر: المغرب 1401هـ. ج217/2

35- مقدمة كتاب الجامع ج 12/1

الفرع الثالث: ثناء العلماء عليه

لمحمد بن يونس مكانة كبيرة في قلوب علماء عصره، ومن جاء بعدهم من المؤلفين وشراح الفقه المالكي، إلى درجة أنه كان يعتبر مرجعا جامعا لمسائل المذهب المالكي، إلى جانب موسوعيته في الفرائض والحساب.

قال عنه القاضي عياض: "كان فقيهاً فرضياً حاسباً... وأضاف: وكان ملازما للجهاد موصوفا بالنجدة"[36].

وقال عنه ابن فرحون: "كان فقيها إماما عالما فرضيا، وكان ملازما للجهاد موصوفا بالنجدة"[37].

ووصفه قاسم سعد ب: "الفقيه الفرضي الحاسب المجاهد ".[38]

وقال عنه الحجوي المالكي: "كان فقيها إماما عالما فرضيا، ملازما للجهاد، موصوفا بالنجدة، مشهورا في المذهب المالكي، وهو أحد الأربعة الذين اعتمد الشيخ خليل على ترجيحاتهم في مختصره"[39]

ووصفه محمد مخلوف بقوله "الإمام الحافظ النظار، أحد العلماء وأئمة الترجيح الأخيار، الفقيه الفرضي الفاضل الملازم للجهاد، الموصوف بالنجدة، الكامل[40].

وقال عنه المؤرخ توفيق مدني: "تبحر في العلم وشدت إليه الرحال للإفتاء حتى لقب بالإمام الأكبر"[41].

المبحث الثاني: التعريف بكتاب الجامع لمسائل المدونة والمختلطة.

ولما كانت حياة الإمام أبي بكر بن يونس الصقلي الشخصية فريدة، وكانت حياته الفكرية والعلمية رائدة عجيبة، خلفت هذه الشخصية الفذة مؤلفا من أروع المؤلفات الفقهية وأصحها، قال عنه الحجوي الثعالبي: "وكان يسمى مصحف المذهب لصحة مسائله ووثوق صاحبه"[42] تصدى فيه الإمام أبو بكر بن يونس الصقلي لمسائل المدونة وغيرها من الدواوين الفقهية المختلفة، جمعا وترجيحا، توجيها واستدلالا، فهو كتاب ليس من كتب فروع الفقه العادية، وإنما هو بدع من التأليف، نهج فيه صاحبه منهج الرواد الأوائل، بل زاد فيه حسن التبويب والترجيح والتوجيه، وسأحاول في هذا المبحث أن أتناول أهمية هذا المؤلف من خلال مطلبين كما يلي:

المطلب الأول: اسمه وأهميته

يحتل مؤلف أبي بكر بن يونس الصقلي مكانة عظيمة في مكتبة الفقه المالكي، الأمر الذي جعله أحد أعمدة الكتب الفقهية وأشدها فائدة ونفعا، فما هو اسم هذا الكتاب؟ وأين تتجلى أهميته؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة سأتناول هذا المطلب في ثلاثة فروع وهي كما يلي:

---

[36]- ترتيب المدارك، ج114/8

[37]- الديباج المذهب، ج2 / 240 رقم 67.

[38]- جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ص1132 رقم: 1125.

[39]- الفكر السامي، ج245/2 رقم 568.

[40]- شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية، محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، اعتنى به عبد المجيد خيالي، الناشر: دار الكتب العلمية، ج164/1 رقم: 330.

[41]- المسلمون في جزيرة صقلية، ص 203.

[42] - الفكر السامي، ج245/2.

الفرع الأول: اسم الكتاب وسبب تأليفه

اسمه: ورد عنوان الكتاب في فهرسة خزانة القرويين باسم: "الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، وزياداتها ونظائرها وشرح ما أشكل منها وتوجيهه، والفرق بينه وبين ما شاكله، مجموع بالاختصار، وإسقاط التكرار، وإسناد الآثار، من أمهات الدواوين للأئمة المالكية"[43].

سبب تأليفه: قال ابن يونس في مقدمة كتابه، وهو يبين سبب تأليفه لكتاب الجامع: أما بعد يسرنا الله لرعاية حقوقه، وهدانا لتوفيقه، فقد انتهى إلي ما رغب فيه جماعة من طلبة العلم ببلدنا، في اختصار كتب المدونة والمختلطة، وتأليفها على التوالي وتبسيط ألفاظها وتتبع الآثار المروية فيها، عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه...[44]

الفرع الثاني: أهمية كتاب الجامع

وضع الإمام أبو بكر بن يونس كتابه الجامع، جامعا لفروع الفقه المالكي مدعومة بالدليل الشرعي، يكون عمدة في بابه لمن جاء بعده من طلاب العلم عموما والمشتغلين بالمذهب المالكي خصوصا، وتظهر أهمية هذا المؤلف من خلال كونه عمدة لطلبة العلم، قال القاضي عياض: "ألف كتابا في الفرائض، وشرحا كبيرا للمدونة عليه اعتماد الطالبين بالمغرب للمذاكرة"[45].

وقال الحجوي الثعالبي: "ألف كتابا جامعا لمسائل المدونة والنوادر، وعليه اعتمد من بعده، وكان يسمى مصحف المذهب؛ لصحة مسائله ووثوق صاحبه"[46].

وقال النابغة الغلاوي صاحب البطليحة مادحا لكتاب الجامع واصفا إياه بالمصحف الجامع:

واعتمدوا الجامع لابن يونس وكان يدعى مصحفا لكن نسي"[47]

وقال ابن خلدون في مقدمته عند حديثه عن كتب الفقه المالكي: "وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتب النوادر؛ فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفرغ الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه الجامع على المدونة".[48]

الفرع الثالث: اهتمام العلماء بكتاب الجامع

اهتم فقهاء المالكية بكتاب الجامع واعتبروه مرجعا يحوي تفاصيل نوازل الفقه المالكي، واعتمدوا عليه في المراجعة والمذاكرة، لكونه جمع ما في المدونة والأمهات من المسائل والفروع الفقهية، والتي تجعله يغني عن غيره من المصادر الفقهية، وإلى هذا يشير صاحب كتاب العمر حين قال: "فتناول ابن يونس الفرضي المدونة، وأضاف إليها غيرها من الأمهات، وجعل منذ ذلك كتابا كان عليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة؛ حتى لقد انتقل الكتاب إلى المغرب، وانتسخ في سبتة، وهذا أول كتاب تصدره صقلية إلى الخارج".[49]

---

[43]- انظر الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، محمد العلمي، الناشر: الرابطة المحمدية للعلماء، ص 110 رقم، وكتب في الهامش: انظر فهرسة خزانة القرويين 342/1.

[44]- الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، تحقيق: مجموعة من الباحثين في رسائل دكتوراه، الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي-جامعة أم القرى، الطبعة الأولى:1434هـ، ج2/1.

[45]- ترتيب المدارك، ج114/8.

[46]- الفكر السامي، ج245/2.

[47]- نظم البوطليحة، محمد النابغة بن عمر الغلاوي.

[48]- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، الناشر: المكتبة العصرية صيدا، بيروت، الطبعة الثانية:1423هـ. ص 422

[49]- العرب بصقلية، إحسان عباس، الطبعة الأولى،1975م.، ج98/1. وينظر أيضا كتاب العمر، ج676/1.

وهذا ما جعل فقهاء المالكية يولون عناية خاصة لكتاب الجامع، فجمع بعضهم بينه وبين غيره من الكتب الفقهية، كما اختصره الآخرون ومن هذه الكتب التي اعتنت بكتاب الجامع:

1. الجامع بين التبصرة والجامع والتعلقة لمخلوف.

ألف أبو الحسن الأبياري علي بن إسماعيل بن علي كتاب: تكملة الكتاب الجامع بين التبصرة والجامع لابن يونس والتعلقة للتونسي، قال ابن فرحون: له تصانيف حسنة وله تكملة على كتاب مخلوف الذي جمع فيه بين التبصرة والجامع لابن يونس، والتعليقة لأبي إسحاق، تكملة حسنة جدا تدل على قوته في الفقه وأصوله[50].

2. مختصر جامع ابن يونس الصقلي: لأبي الروح عيسى بن مسعود المنكلاتي الزواوي.[51]

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كتاب الجامع من أهم الكتب التي ألفت في المذهب المالكي، لكونه يتفرد بمجموعة من الخصائص والمميزات.

المبحث الثالث: خصائص ومميزات منهج ابن يونس في كتابه الجامع

اعتمد الإمام أبو بكر بن يونس الصقلي على منهج واضح المعالم في كتابه الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، فما هي إذن ملامح هذا المنهج؟ وماهي خصائصه ومميزاته؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة سأتناول في هذا المبحث ما يتعلق بمنهج ابن يونس في كتابه الجامع من خلال مطلبين وهي كما يلي:

المطلب الأول: منهج الإمام أبي بكر بن يونس في تأليف كتابه الجامع

وسأتناوله في فرعين:

الفرع الأول: منهجه في تأليف كتاب الجامع

تظهر ملامح منهج أبي بكر بن يونس في كتابه الجامع من خلال مقدمته التي رسم فيها معالم منهجه العام والتي يقول فيها: "فقد انتهى إلي ما رغب فيه جماعة من طلبة العلم ببلدنا في اختصار كتب المدونة والمختلطة، وتأليفها على التوالي، وبسط ألفاظها تيسيراً، وتتبع الآثار المروية فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم – وعن أصحابه رضي الله عنهم، وإسقاط إسناد الآثار، وكثير من التكرار وشرح ما أشكل من مسائلها، وبيان وجوهها، وتمامها من غيرها من الكتب، فسارعت إلى ذلك رجاءَ النفع به، والمثوبة عليه إن شاء الله تعالى، وأدخلت فيه مقدمات أبواب كتاب الشيخ أبي محمد بن أبي زيد –رحمه الله تعالى– وزياداته، إلا اليسير منها، وطالعت في كثير منها ما نقله في النوادر، ونقلت كثيراً من الزيادات من كتاب ابن المواز، والمستخرجة، ولم أخل من النظر إلى نقل أبي محمد واختصاره فيها، وعملت على الأتم عندي من ذلك، وربما قدمت، أو أخرت، مسائل يسيرة إلى شكلها..."[52].

ويمكن تلخيص هذا المنهج العلمي الرصين الذي سلكه الإمام أبي" بكر بن يونس في كتابه الجامع، من خلال خصائص ومميزات أبينها فيما يلي[53]:

1. اختصاره لأهم كتب المالكية خصوصا المدونة التي هي عمدة الفقهاء في القضاء والإفتاء.

---

[50]– الديباج، ص306.

[51]– الدليل التاريخي، ص111.

[52]– مقدمة كتاب الجامع لمسائل المدونة والمختلطة ج3/11-4

[53]– ينظر بحث : الترجيحات الفقهية لابن يونس الصقلي من خلال كتابه الجامع فقه العبادات نموذجا. ص 46/45، بتصرف.

2. اهتمامه البالغ بالفروق الفقهية بين الأقوال والآراء المتشابهة، وإلى هذا أشار في مقدمته حين قال: "والفرق بينه وبين ما شاكله"

3. حسن تصرفه في الفروع الفقهية، فيقدم ماحقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير.

4. تبسيطه ألفاظ المدونة تيسيرا لفهمها على الطلاب.

5.إسقاطه المكرر من الآراء الفقهية.

6.أسقاطه أسانيد الأحاديث الواردة في المدونة، وحذف مكررها، تلخيصا وتسهيلا لاستيعاب الفروع الفقهية.

7. شرحه ما أشكل في المدونة.

8.توجيهه المسائل وتعليلها وإضافة غيرها.

9.توجيهه، وتصويبه، وتعليله، وفق الأدلة المعتبرة.

10.عنايته بإيراد الأدلة من المنقول والمعقول، إذ هو كتاب يهتم بالدليل، ويورد مجموعة من النصوص القرآنية والحديثية المتعلق بالمسألة، بل ويعتمد على الأقيسة وغيرها من الأدلة المعقولة.

11.اهتمامه بفقه الصحابة.

12.اهتمامه بفقه المدونة بالدرجة الأولى، بحيث يوجه ويعلل الأقوال الواردة فيها.

13.إيلاؤه عناية فائقة للفروق الفقهية الواردة في المذهب، فتارة يرجح، وتارة يعلل ويوجه.

14.اعتماده على أمهات الفقه المالكي.

15.اعتماده على كتب محمد بن أبي زيد القيرواني وغيرها من الكتب.

16.عنايته بترجيح الآراء وتوجيهها.

وهذا يبين أن منهج الإمام أبي بكر بن يونس متسم بالشمولية والحفظ لآراء مدارس المالكية المختلفة، كما أنه منهج يعتمد ويعتني بالترجيح والتوجيه والتدليل.

الفرع الثاني: منهجه في تحليل أقوال الفقهاء والحكم عليها وتوجيهها

أولا: منهجه العام

ليس قصد الإمام أبي بكر بن يونس من نقل الأقوال داخل المذهب المالكي وخارجه جمع كم هائل من آراء العلماء دون مناقشتها والحكم عليها، بل هدفه الواضح يتجلى في جمع الأقوال وترجيحها والموازنة بينها وتوجيهها وتعليلها، والأمثلة على هذا في الكتاب كثيرة سأذكر منها في المعاملات المالية مثالا واحدا وهو كما يلي:

أورد الإمام أبو بكر بن يونس الصقلي في مسألة بيع المصراة رأيا نسبه لأحمد بن خالد الأندلسي يقول فيه:" من اشترى شاة أو أكثر مصرورة فلا يرد معها إلا صاعا"[54]

[54]– الجامع كتاب جامع لمسائل متفرقة. الباب الأول في بيع المصراة وغيرها وما ترد به من ذلك، الفصل 2 التصرية تكون في جميع الأنعام ومتى ترد. ج13/1038،1039

علق ابن يونس في هذه المسألة على قول أحمد بن خالد قائلا: "ولم أر قول أحمد هذا" يقصد أنه لا يتفق مع هذا الرأي، ثم شرع يفصل في التعليل والتوجيه فقال: أخذ(يقصد أحمد بن خالد) بظاهر الحديث "لا تصروا[55] الإبل والغنم، فمن اشتراها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحتلبها إن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعا من تمر".[56]

ثم قال معللا "ولو قال قائل: بل يرجع مع كل شاة صاعاً لم يبعد من ظاهر الحديث؛ لأنه إذا كان يرد للبن شاة واحدة صاعاً، كيف يرد للبن مائة شاة صاعاً واحداً؟ هذا بعيد"[57].

ثم قال مستشهدا برأي غيره ورأيت بعد قولي هذا لأبي القاسم بن الكاتب القروي أنه يرد مع كل شاة صاعاً، واحتج بذلك بأن أهل العلم قالوا: وجه رد الصاع مع الشاة المصراة ولم يرد مثل اللبن، لأن اللبن المضمون هو الموجود حال العقد، وما يحدث فهو للمشتري، ويتعذر الفصل بينهما والتمييز، فأوجب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك صاعاً لقطع الخصام فيه، وهذا كما أن الأصول تقتضي اختلاف ضمان الأنثى والذكر في الجنين، ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم أوجب في الجنين غرة، عبداً أو وليدة، ذكراً كان الولد أو أنثى، لتعذر التفريق بينهما[58].

فابن يونس في هذا النص سلك منهجا واضحا حيث علل ووجه وقارن بين الأقوال، واستشهد على ترجيحه بما يناسبه من النصوص والأقوال، وهذا حاله في التعامل مع مسائل الفروع الفقهية الأخرى.

ثانيا: منهجه في تناول الكتب الأبواب الفقهية

يعتمد الإمام أبو بكر بن يونس على منهج واضح في تناول الكتب والأبواب الفقهية، ويمكن تلخيصه من خلال الخطوات التالية:

1. يصدر الباب بما يراه مناسبا من أدلة شرعية من القرآن والسنة، ومن أمثلة ذلك قوله في كتاب السلم الأول: الأصل في جواز السلم قوله عز وجل[59] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [60]
2. يبدأ غالبا بذكر رأي المدونة في كل فرع من الفروع الفقهية، فتارة يعبر عن ذلك بقوله ومن المدونة قال مالك، وتارة قال مالك، وغيره.
3. يذكر رأي ابن القاسم في المدونة ويعلق عليه بأقوال غيره من فقهاء المذهب.
4. يذكر أقوال الفقهاء الموافقين والمخالفين لرأي المدونة تارة بذكر أسمائهم وتارة أخرى بصيغ التمريض.
5. ينسب الأقوال إلى قائليها إما بذكر أسمائهم أو بتوثيق الأقوال من مصادرها الأصلية.
6. يأتي بالتفريعات الفقهية في كل مسألة.
7. حينما يريد التعليق عن مسألة فقهية برأيه يضع حرف (م) يرمز به إلى نفسه ويقصد بذلك (مصنف).
8. يرجح الأقوال ويوجهها وذلك بذكر أسباب الترجيح وعللها.

55- التصرية: جمع اللبن في ضرع أنثى الحيوان.

56- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إن شاء رد المصراة وفي حلبتها صاع، ح2150 من حديث أبي هريرة.

57- ينظر كتاب الجامع كتاب جامع لمسائل متفرقة. الباب الأول في بيع المصراة وغيرها وما ترد به من ذلك، الفصل 2 التصرية تكون في جميع الأنعام ومتى ترد. ج13/1038،1039

58- ينظر كتاب الجامع كتاب جامع لمسائل متفرقة. الباب الأول في بيع المصراة وغيرها وما ترد به من ذلك، الفصل 2 التصرية تكون في جميع الأنعام ومتى ترد. ج13/1038،1039

59- ينظر كتاب الجامع، ج11/100

60- سورة البقرة الاية 275

9. تارة يرجح هو بنفسه، وتارة ينقل ترجيح أحد أئمة المذهب.

10. يختم بعض الفروع بتأصيلها والاستدلال عليها من خلال الكتاب والسنة.

المطلب الثاني: مصطلحاته ومصادره.

الفرع الأول: مصطلحاته

وضع ابن يونس كتابه الجامع وفق منهج واضح متين، يظهر هذا جليا من خلال المصطلحات والمصادر التي اعتمدها في كتابه، منها: المصطلحات العامة التي دأبت المدرسة المالكية على استعمالها للتمييز بين أعلام المذهب ومصادره، ومن أمثلة ذلك قوله قال: بعض البغداديين أو أهل العراق ويقصد بهم: القاضي إسماعيل، والقاضي أبو الحسن بن القصار، وابن الجلاب، والقاضي عبد الوهاب، والقاضي أبو الفرج، والشيخ أبو بكر الأبهري ونظراؤهم، ويشمل المصطلح أهل البصرة والكوفة.[61]

وكذا المصطلحات الخاصة التي يضعها كل مؤلف لمؤلفاته ويصرح بها في مقدمة كتابه، منها ما هو خاص بالأعلام، ومن أمثلة ذلك، وضعه لحرف (م): إشارة منه إلى نفسه، إما اختصارا لمحمد أو لعبارة (مصنف). وقال: محمد، يقصد ابن المواز، وقال: أبو إسحاق، يقصد ابن القرطي وقال: عيسى، يقصد ابن دينار، وقال: يحيي، يقصد يحيي الليثي، وقال: علي، يقصد ابن زياد التونسي، وقال: موسى، يقصد ابن معاوية الصمادحي، وقال عبد الملك، يقصد ابن الماجشون، وقال: أبو بكر، يقصد ابن اللباد، وقال: الوقار، يقصد زكريا الوقار، وقال القزويني يقصد أحمد بن محمد، وغيرهم كثير، ومنها ما هو خاص بالكتب ومن أمثلته: ذكره لمصطلح الأمهات ويقصد بها المدونة، الموازية، والعتيبة، والواضحة، كما هو مقرر عند أهل هذا الفن.

الفرع الثاني: مصادره

ومن المصادر التي اعتمدها أبو بكر بن يونس وجعلها مادة أولية لكتابه الجامع منها: القرآن الكريم، ومصادر في الحديث منها: الموطأ والصحيحين، وشرح غريبها: كشرح غريب الموطأ لعبد الملك بن حبيب، ومصادر في السماعات، من مثل: سماع ابن وهب وسماع عبد الرحمان بن القاسم، وثمانية عبد الرحمان بن أبي زيد القرطبي[62] وغيرها، وأحيانا يصرح بالمصدر كقوله: ومن الواضحة ... وفي الموازية، وأحيانا أخرى لا يصرح به كصنيعه مع مؤلفات القاضي عبد الوهاب البغدادي وغيرها[63].

وقد فصل القول في هذا الفرع الدكتور حمدون الشمري في مقدمة تحقيق كتاب الجامع، يمكن الرجوع إليه ولا داعي للتفصيل فيه هنا في هذا البحث.

---

[61]- ينظر كتاب: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، أبو عبد الله الحطاب المالكي، الناشر: دار الفكر، الطبعة الثالثة: 1412هـ، ج 40/1.

[62]- الثمانية: عبارة عن ثمانية كتب وهي: سماعات من شيوخه المدنيين؛ كابن الماجشون، ومطرف بن عبد الله، ونظرائهم، ينظر: الدليل التاريخي ص67.

[63] - ينظر: مقدمة كتاب الجامع ج17/1 وما بعدها بتصرف.

الخاتمة

ختاماً، يتضح أن الإمام أبو بكر بن يونس الصقلي يمثل قامة علمية وفقهية فذة في تاريخ المذهب المالكي، حيث استطاع من خلال كتابه "الجامع لمسائل المدونة"أن يرسخ دعائم المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، إن نعت كتابه بـ "مصحف المذهب"يعكس المكانة المركزية التي احتلها، ليس فقط لشموليته واستيعابه لأمهات الدواوين، بل للدقة المتناهية والوثوقية العلمية التي ميزت شخصية مؤلفه.

لقد أثبتت الدراسة أن منهج ابن يونس في كتابه "الجامع" تجاوز مجرد الاختصار والشرح للمدونة؛ بل كان منهجاً نقدياً وتحليلياً استند إلى تعليل المسائل وتوجيهها بناءً على الأدلة الشرعية من المنقول والمعقول، كما برز كأحد أئمة الترجيح الأربعة الذين لا يستغنى عن آرائهم، متميزاً بانضباطه داخل قواعد المذهب ومراعاته لمقاصده من خلال القياس والعرف والعادة.

إن الأثر العلمي الذي خلفه ابن يونس الصقلي، من خلال تيسير مسائل المدونة وإسقاط تكرارها وتوثيق آثارها، جعل من عمله مرجعاً رئيساً اعتمد عليه كبار الفقهاء الذين جاؤوا من بعده، كالشيخ خليل في مختصره، وبناءً على ما تقدم، يظل تراث هذا الإمام شاهداً على مرحلة نضج الفقه المالكي وقدرته على الاستيعاب والترجيح، مما يجعل من دراسة آثاره ضرورة لفهم تطور الاجتهاد داخل المدارس الفقهية الإسلامية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي، محمود النجري، الناشر: وزارة الأوقاف، دولة الكويت، الطبعة الأولى: 2008م.
- التاج والإكليل لمختصر خليل، أبو عبد الله المواق المالكي، الناشر: دار الكتب العمية، الطبعة الأولى:1416هـ.
- تاريخ صقلية الإسلامي، عزيز أحمد، ترجمه إلى العربية أمين توفيق الطيبي، الناشر: الدار العربية للكتاب 1980م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، الناشر: مطبعة فضالة- المحمدية المغرب، الطبعة الثانية:1403هـ.
- الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، أبوبكر محمد بن يونس الصقلي، تحقيق أبو الفضل أحمد بن علي الدمياطي، الناشر: كتاب ناشرون بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1433هـ.
- جمهرة تراجم أعلام فقهاء المالكية، قاسم سعد، الناشر: دار البحوث للدراسات، الطبعة الأولى: 1423هـ.
- الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، محمد العلمي، الناشر: الرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة بدون.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علما المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار التراث القاهرة.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، اعتنى به عبد المجيد خيالي، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.
- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، تحقيق: مصطفى البغا، الناشر: دار ابن كثير- دمشق، الطبعة الخامسة 1414هـ.
- العرب في صقلية، إحسان عباس، ، الطبعة الأولى،1975م.
- الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، الحجوي الثعالبي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت.
- كتاب الجامع لمسائل المدونة ابن يونس الصقلي، إعداد حمدون عبد الله الشمري، الناشر: دار الفكر للطباعة بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1434هـ.
- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، حسني عبد الوهاب، الناشر: دار الغرب الإسلامي.
- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، أحمد توفيق المدني، الناشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية 1985م.
- المسلمون في صقلية، مارتينو ماريو مورينيو، الناشر: منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1957م.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث- بيروت، 1420هـ.